الخيال الرامز في «خاطرة» صفية القليطي

د.صبري فوزي أبو حسين*
مصر

طالعت في العدد التاسع والثلاثين من مجلتنا الغراء عملاً أدبيًا محلقًا بعنوان «خاطرة» للأديبة صفية سعد القليطي، وقد تفاعلت معه تفاعلاً نقديًا آسرًا، أثمر الخواطر التحليلية التالية:

❖ يتأرجح هذا العمل الأدبي بين كونه خاطرة أدبية - كما رأى د.حسين علي محمد في ص٩٦ من العدد نفسه، وبين كونه قصة قصيرة رمزية جديدة الهيكل في نظري. وهذا التأرجح في التصنيف في صالح العمل الأدبي ودال على تنميته.

❖ البناء الدرامي للقصة يتكون من شخصيتين رئيسيتين، هما: الورقة والشجرة. وشخصيات تابعة هي: الماء، والأتربة، والغبار، والأطراف والأجزاء. وهي شخصيات مجردة تحتمل الإسقاط على نماذج عديدة من الواقع. وقد جاءت الأحداث في وحدة مقبولة منطقيًا، ومرتبة ترتيبًا لذيذًا، وهي: سقوط الورقة، أنينها وحنينها - ضرر المار - وجود الحياة في أجزاء الورقة لا أطرافها.

❖ كتابة القصة بالشكل الموجود في المجلة، الكتابة العمودية الرأسية، والمرتب فيها الألفاظ والتعبيرات بطريقة خاصة- كتابة فنية موحية، تساعد المتلقي على متابعة الأحداث، وتبين دور الشخصيات في تفجيرها، وإدراك مواطن الحبكة الفنية المركزة، ومن ثم نصل إلى تأويل للقصة، يلائم هيكلها وأسلوبها.

وهذا الشكل الكتابي - أيضًا - يدل على الشاعرية المجنحة التي تشيع في جنبات القصة، وتعيد المتلقي إلى السمو الشعري الجليل لدى رومانسيي المهجر وأتباعهم، إذ تكاد تكون قصيدة من الشعر الحر - على نسق تفعيلة البحر المتدارك بصورها العديدة- لو عدلت بعض تعبيراتها.

❖ التكثيف جلي في مفردات القصة وتعبيراتها، فـ«أعلى الشجرة وأسفلها» إشارة إلى ما في الكون من سمو أو تردٍّ. و«تسرح وتمرح» إشارة إلى داعي سقوط الأمم: الغفلة واللهو. و«أنين-حنين- بالطين» إشارة إلى معاني التفجع والدونية والشوق والأمل التي تمر بها الأمة إبان الانكسار. و«أطراف الورقة» تموت لأنها خارجة شاذة، وليست صادقة داخلية عميقة. و«أجزاء الورقة» ما زالت حية لأنها متجمعة داخلية أصيلة في الالتحام بالورقة. وقد وظفت القاصة لفظ «الدنيا» توظيفًا بلاغيًا دالاً في خاتمة القصة، حيث تقول: «أجزاء الوررقة.. الدنيا.. ليست ملهى» إذ جعلت للورقة أجزاء دنيا - أهل القاع/الشعوب - ليسوا في لهو أو لغو، بل هم أحياء، ويقابل الأجزاء الدنيا، أجزاء عليا - أهل القمة/الشاذين - سكتت عنهم القاصة، وأضمرتهم من عالمها الخيالي، رفضًا (مكتومًا) منها لأحوالهم ومظاهر لهوهم وموتهم.

ولفظ «مار» يزيد الأمل قوة في الخلاص من تساقط الورقة، إذ مهما بلغ «مار» من الجبروت والطغيان: فكريًا واقتصاديًا وعسكريًا، فلن يدوم له البقاء، بل هو صائر إلى «المرور» أي التجاوز، مثل من سبقه من الأعداء المارين بحقدهم على الأمة، وقد بقيت، مرضت لكنها لم تمت.

❖ مغزى القصة - كما تلقيتها - تقديم صورة لأمتنا إبان فترة الانكسار. فـ«الورقة» هي الأم و«الشجرة» هي الكون. و«مار» هو كل عدو محتل. و«الأتربة والغبار» آلاته في الحقد والكسر. والتجريد في هذه العناصر يضع أمام القارئ فرصًا للذهاب في تأويلها كل مذهب، ويعطي للقصة عمومية وإنسانية وخلودًا، يضعها في مصاف القصص القصيرة الجيدة مما يبشر بميلاد قاصة إسلامية واعدة، لو أنها أعطت العنوان «خاطرة» مزيدًا من التعميق والغموض الفني. ■

* كلية اللغة العربية بالزقازيق، جامعة الأزهر.